أثر الهرمنيوطيقا في تفسير القرآن الكريم

The Hermeneutic Impact on the Interpretation of the Noble Qur'an

Ameer Mohammed Hasan

أمير محمد حسن، طالب دكتورا في جامعة يوزنجييل/ تركيا

ameermuhammad1512@gmail.com

الملخص: مما لا يحمل الشك أن القرآن الكريم يواكب جميع المستجدات الحياة في كل زمان ومكان، وأن الأسس والقواعد التي قام عليها المنهج القرآني جعل الله تعالى فيها المرونة والليونة، بحيث تتسع لمواجهة كل جديد، وذلك عن طريق البحث والإمعان في أعماق النص وتحليله. وقد أتسع مفهوم الهرمينوطيقا وانتقل من مجال تفسير النصوص الدينية اللاهوتية إلى تفسير النصوص الأدبية والتأريخية وعلم الإجتماع، واحتل مساحة واسعة عند المفكرين وعلماء المفسرين المعاصرين، وذلك لإزالة الغموض حول المصطلحات والنصوص، وتحديد المفاهيم التي يراها القارىء مناسبا للنص، وأصبح ولج في الآونة الأخيرة بشكل غير مسبق فيما يتعلق بتفسير القرآن الكريم من عند بعض المفكرين في الشرق الأوسط، إذن الهرمينوطيقا تعتبر من مسائل القديمة والجديدة في آن واحد، لأنه منذ نشأتها إلى عصرنا هذا ترتكز على كيفية تفسير النصوص وطبيعتها من جهة، وعلاقة المؤلف أو المفسر بالنص من جهة أخرى.

الكلمات المفتاحية: الأثر، الهرمنيوطيقا، التفسير، القرآن.

Abstract

The Hermeneutic Impact on the Interpretation of the Noble Qur'an

There is no doubt that the Noble Qur'an keeps pace with all the developments of life at every time and place, and that the foundations and rules upon which the Qur'anic approach was based, God Almighty made in them flexibility and flexibility, so that it expands to confront all new, through research and reflection in the depths of the text and its analysis. Hermeneutics is a method of research and art in interpretation of speech,

related to the interpretation of texts, but it takes an unconventional approach, and is based on the freedom of absolute analysis, and the exploration of hidden data, depends on the use of reflection and reflection in the implementation of the mind, and does not care about the apparent meaning of the text. There have been conflicting views about the effectiveness of the hermeneutic approach in the legal texts. This contradicts the principles and rules laid down by scholars on those who expose themselves to the interpretation of the Noble Qur'an. This research has tried to show the concept of hermeneutics and its method in analyzing texts, and to indicate the possibility of dropping this philosophy as a mechanism in the interpretation of Quranic verses, and to memorize its negative and positive impact, and also seeks to root the theory of hermeneutics in the circles of buildings and assets in interpretation, and this research takes the path of induction and exploration, to apply The idea of hermeneutics and its projection in the rules and principles of interpretation, and the nature of the relationship between them in this regard.

Key Words: Hermeneutic, Impact, Interpretation, Qur'an

المقدمة

الهرمنيوطيقا أسلوب من أساليب البحث، لغرض التفنن في تأويل الكلام، وإظهار مكامنه، غير أنه ينتهج منهجا غير تقليديا، وهو قائم على حرية التحليل المطلق، وتنقيب البيانات الخفية، تعتمد على استخدام التدبر والتفكر في إعمال العقل، ولا يأبه لمعنى الظاهر للنص. وقد تضاربت وجهات النظر حول مدى فعالية المنهج الهرمنيوطيقي في النصوص الشرعية، فمنهم من يرى السبيل الوحيد لإحياء النص وإعادة فهمه، بل أنها من مقتضيات العصر، وأما نظرة الآخرين في الهرمنيوطيقا هي نظرة الرفض والإنكار، وذلك لإسباب عدة، أهمها: تجعل النص محكومًا لفهم المفسر، وهذا يتنافى مع الأصول والقواعد التي وضعها العلماء على من يتعرض نفسه لتفسير القرآن الكريم. وقد حاول هذا البحث أن يبين مفهوم الهرمنيوطيقي ومنهجه في تحليل النصوص، وبيان امكانية إسقاط هذه الفسلفة كآلية في تفسير الآيات القرآنية، واستظهار أثره السلبية والإيجابية،

وكما يسعى إلى تأصيل نظرية الهرمنيوطيقا في أوساط المباني والأصول في التفسير، ويسلك هذا البحث سبيل الإستقراء والإستكشاف، لتطبيق فكرة الهرمنيوطيقا وإسقاطه في قواعد التفسير واصوله، وطبيعة العلاقة بينهما في هذا الصدد.

أهداف البحث:

- الوصول إلى نتائج تطبيقية وعملية في إسقاط منهج الهرمينوطيقا في آلية التفسير وقواعده.
- الحفاظ على قداسة النص، وعدم التلاعب بمضامين النصوص وأحكامها الثابتة.
- بيان ما هو المرفوض والمقبول في نظرية الهرمينوطيقا لتحليل النصوص الشرعية.

أسئلة البحث:

- هل الهرمينوطيقا يصطدم مع قواعد وأصول التفسير؟
- كيف يمكن الإستفادة من نظرية الهرمينوطيقا في تفسير الآيات؟
- هل الهرمينوطيقا كمفهوم التأويل الذي استخدم علماء السلف والخلف في استنباط النصوص؟
- ماهي سلبيات ومساوء منهج الهرمينوطيقا في تحليل النصوص؟

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث المطروح إلى مدى علاقة نظرية الهرمينوطيقا في تأويل الآيات القرآنية وتفسيرها، واستظهار ميزاتها ومساوئها في إعمال العقل والتدبر لمعاني الغامضة غير المفهومة النص.

منهج البحث:

يعتمد منهج البحث في استعراض مسائله على تحليل المواضع ومقارنته، ومن ثم توصيفه على الواقع.

المبحث الأول: مفهوم الهرمنيوطيقا، وأسس منهجها

المطلب الأول: مفهوم مصطلح الهرمينوطيقا

شاعت استخدام مصطلح الهرمنيوطيقا الغربي بين أوساط الباحثين من المفكرين المعاصرين عوضًا من استخدام مصطلح (التأويل) العربي، ستمضي هذا البحث لتحديد مفهوم الهرمنيوطيقا،

رغم أن هذا المصطلح مر بعدة مراحل تاريخية وتغيرت مفهومه، وطرأت عليه تحولات الدلالية بين عصر وآخر، وقد اتسع دائرة مفهومه بحيث يصعب على الباحث تحديد معناه إلا بعد الرجوع إلى أصل اشتقاق الكلمة ونشأتها في الوهلة الأولى، فمن خلال دراستنا سنقوم بتوضيح هذا المصطلح واستظهار دلالته من كلا الجانبين: جانب اللغوي والاشتقاقي للكلمة، وجانب استخدام التاريخي والتراثي للمصطلح.

أولاً: الجانب الإشتقاقي اللغوي

إن الأصل والجذر الاشتقاقي لمصطلح الهرمنيوطيقا جاءت من الفعل اليوناني Hermenuetics، بمعنى يفسر أو يوضح أو يترجم... ومن الاسم Hermeneia بمعنى التأويل أو التفسير أو التوضيح, وكلاهما مشتق من Hermes (الهرمس) رسول الآله الأغريقي، وكان (الهرمس) وسيطاً بين الآلهة والبشر، حيث أنّه "يقوم بعملية إفهامٍ عن طريق تجسير المعنى ونقله من لغة الآلهة إلى لغة البشر. يبلّغ المقصدَ الإلهي بلغة بشرية؛ إذ اللغة هي العنصر الأساسي في الهرمنيوطيقا كذلك، أي يعمل على إلباس الكلام الإلهي حلة بشرية متجاوزا الفاصل الأنطولوجي بين وجودين مختلفين ". (منى طلبة، 2004م، صفحة 128)

ثانياً: الجانب التاريخي لمفهوم الهرمينوطيقا

زرعت بذرة الهرمينوطيقا في القرن السادس عشر عندما ظهر حركة الإصلاح البروستانتية على يد مارتن لوثر، وكان متعلق برفض "السلطة التعليمية" في الكنيسة الكاثوليكية، لأجل تحرير المسيحيين من إمبريالية البابا في فيما يتعلق بتفسير الكتاب المقدس، والتي تجعل البابا هو صاحب القول النهائي الفاصل في معاني الكتاب المقدس، وعارض مارتن على هذا الإحتكار التفسيري من قبل البابا، إذ قال ان كل مسيحي له حق أن يفسر النصوص المقدسة.

وتعتبر كتاب (دان هاور) أول كتاب استخدم فيه مفهوم الهرمنيوطيقا في سنة 1654م، بعنوان: " التفسير المقدس أو منهج شرح النصوص المقدسة، (منى طلبة، 2004م، صفحة 128) مفهوم الهرمينوطيقا في ذلك الوقت ارتبطت بالدراسات اللاهوتية، وهي عبارة عن تفسير النصوص المقدسة، ولذلك تعتبر هذا التعريف من أقدم التعاريف لهذا المصطلح، في بداية استخدامها، الذي

يتمّ أداءها عبر اللغة كما فعل (هرمس) بنقل كلام الآلهة وتفسيره إلى البشر، لرفح الغموض والإبهامات فيها، يمكن القول على أن الهرمينوطيقا فن يبحث في تفسير نصوص الدينية المبهمة، وذلك بسبب صعوبة فهم النصوص والعبارات الموجودة في الكتب المقدسة.

ثم توسع مفهومه على يد الفلسوف الألماني "شلاماخر" وتحولت إلى مرحلة جديدة بعيدا عن معناها التقليدي، والذي كانت مختصة بتأويل النصوص المقدسة في حينها، وفك شلا ماخر القيد على مفهوم الهرمينوطيقا وجعل تطبيقها على كل النصوص، دينية وغير دينية على حد سواء، وعملية التفسير النصوص عند شلاماخر يبنى على أساسين: (دايفد جاسبر، 2007م، صفحة 118)

أولهما: التفسير النفسي، الذي يهتم بالتفاعل بين القاري والنص.

ثانيهما: التفسير القواعدي، الذي يتطلب معرفة وفحصاً ألسنياً ونحوياً لبنية النص ولغته.

ويرى شلاماخر أن المفسر ينبغي أن يفهم النص كما فهمه مؤلفه، ولم يقف على هذا الحد فقال: بل يجب على المفسر أن يفهمه بشكل أفضل من المؤلف (دايفد جاسبر، 2007م، صفحة 118)، فهذا تصريح بمسح المؤلف وشخصيته في النص، ويستوطن المفسر شخصية المؤلف، بإعتباره منتجاً للنص ومبدعاً له، وأمر بالتغاضى عن الذات وقدسية النص، وأراد بذلك أن يكون قارىء النص فناناً في قراءته للنص وحاذقاً في اختيار المعاني والمفاهيم أثناء دراسته للنص دون أي اعتبار لشخصية المؤلف وقدسية النص. (جاسم حميد، هبة محمد، 2015م)

إن مهمة الهرمينوطيقا عند شلاماخر تتغير باستمرار؛ بمعنى أن النص قابل لمعان متعدد ومغايير عند القارىء نفسه، لذلك قال: كلما يدرك القارىء إلى أنه وصل إلى القمة كلما كان وراءه قمة أخرى أعلى وراءها. (دايفد جاسبر، 2007م، صفحة 122)

هذه النقلة التاريخية من القرن الثامن عشر لمفهوم الهرمنيوطيقا التي كانت ترتبط بتفسير النصوص الدينية ويصل القارىء أو المفسر إلى الإطمئنان واليقين، أصبحت توسع دائرة معانيها من النصوص اللاهوتية إلى جميع النصوص، فالنص عندما يمارسه عقل القارىء ويعليله يطيحه من

اليقين إلى الشك، ويحل القارىء محل صاحب النص، بحجة بداهة عقله وإبداع فهمه، ومهارة قراءته للنص.

ثم قام فيلسوف الألماني "دلتاي" بتوسعة مجال الهرمينوطيقا، وسعى إلى شمولية أو منهجية الهرمينوطيقا لكل العلوم الإنسانية والإجتماعية، وذلك عن طريق تأويل السلوك والأفعال الإنساني وتأريخيته. (صفدر إلهي راد، سلسلة مصطلحات معاصرة رقم 23، صفحة 88)

أما الهرمينوطيقا عند "بول ريكو" بمثابة التأويل والتفسير، وقد عرّفها فقال: "هي نظرية للقواعد الحاكمة على التفسير؛ أو بعبارة أخرى: هي عملية التأويل لفك الرموز والعلامات التي تحتل مكان النص" (ريتشارد بالمر، ترجمة: محمد سعيد، صفحة 52)

هكذا طرأت على فكرة الهرمينوطيقا تغييرات في مفهومها ومضمامنها من مرحلة إلى أخرى، وحصلت له تحولات الدلالية في الممارسات في جميع العصور، حسب قراءة الفيلسوف ودراسته في العصر الذي يعيش فيه، ولذلك نجد في مفهوم الهرمنيوطيقا مغايرة المعنى وتوسعته عند الفلاسفة الغربيين، وقد ارتبطت في بدايتها بتفسير وتأويل كتاب المقدس، ثم توسعت حدودها. واستخدمت في تأويل كل أنواع الأعمال الفنّية، والحكايات الأسطورية، والأحلام ومختلف أشكال الأدب واللغة، وجعلوا نفسية الكاتب وأهواءه عاملا أساسيا لتأويل النصوص واستنباطاته.

ومن ثم نجد من المفكرين والأدبيين المسلمين في عصرنا هذا حذوا حذو الغربيين، وتأثروا بتلك المفاهيم وأسقطوا على منهج التفسير للقرآن الكريم، بل جعلوها ضرورة العصر في بيان تفسير جديد للقرآن الكريم وتأويل الآيات على منهج الهرمنيوطيقا، سنبيين آراءهم في تمسكهم بمنهج الهرمينوطيقا في تفسير القرآن الكريم في مبحث مستقل إن شاءالله.

المطلب الثاني: أهم الأسس والقواعد التي تعتمد عليها فكرة الهرمنيوطيقا لتأويل النصوص وتفسيرها

سنظهر في هذا المبحث أسس التحليل عند المفكرين المعاصرين الذين يعولون إلى منهج الهرمنيوطيقي وتطبيقه على القرآن الكريم، وتلك القواعد والأسس عبارة عن آراء وأفكار الفلاسفة الغرب لمفهوم الهرمنيوطيقا، منها:

1. ملازمة التأويل في جميع النصوص دون استثناء، أي لا يوجد نص إلا وينفتح في فضائه تأويلات ومعاني مكمنة في داخله، ولا يسلم أي نص تأويله من قراءة القارىء الماهر، ويستنبط منه دلالات متعددة، سواء أن تكون ذات صلة ما أراده المؤلف أم لا.

التأويل حاكم على النص، وصفة ملازمة لكل خطاب، والقراءة التي تقول ما يريده المؤلف لا مبرر لها أصلا، بل تعتبر القراءة الميتة للنص، ينبغي أن تكون قراءة حية وفعالة مثمرة، وإن اختلف مع معنى المراد في النص. (أبو زيد، 1994م، صفحة 205) ولذلك زعموا بأن دلالة النص ليس ثابتة، فقال أحدهم منهم: "و النص المحكم الذي لا يحتكم إلا دلالة واحدة لا وجود له" (علي حرب، نقد النص، 1993م، صفحة 20)

القول بأن الأصل في الكلام التأويل، إقرار بالتحريف والتغيير والتقول على النص – القرآن الكريم– كما وقع ذلك فعلا على يد ممن تبنى فكرة الهرمنيوطيقا، لأن عدم سلطة النص ورفض إثبات حكمه في القرآن الكريم رد على ما أمربه الله عزوجل في القرآن وما نهى، وكذلك قول بعدم مغايرة كلام الله سبحانه وتعالى مع كلام البشر، فقال حسن حنفي في هذا صدد: "لا يوجد فرق بين كلام الله وكلام البشر بعد أن تجسَّد فيهم. بل إن الإنسان عنده يستطيع أن يقول مثل كلام الله، فقال: "قل أنت: قال الله في كتابه الكريم: يا شباب الحجارة ويا أطفال الحجارة استمروا... ويكون كلامك صحيحًا... أي أنك عبرت عن الواقع بصياغة لو كان الوحي هنا لعبر عن الواقع نفسه ربما بصياغة بلاغية أجمل" (حسن حنفي، الاسلام والحداثة، بحث منشور، صفحة 220)

عند الهرمينوطقيين أن الخطاب الديني –القرآن الكريم– قابل للأخذ والرد، (محمد أركون، الفكر الاسلامي قراءة علمية، 1996م، صفحة 22) ليس فيه معنى من داخله بل " أن القرآن نموذج للخطاب، كتاب مسطور لا ينطق، إنما ينطق به الرجال، الخطاب المدون حروف، كلمات وأفعال وأدوات ربط، مرئية بالعين، مدونة باليد، ومسطورة على صحف، يعطيها القارئ معناها بما لديه من قدرات لغوية ومعرفية." (حسن حنفي، معنى الخطاب الديني، 2008م)

2. الإقرار بموت المؤلف عند تأويل نصه وتحليله، مولود القارىء رهين بموت المؤلف، عندما بدء عصر النهضة قام "مارتن لوثر" بتحرير الكتاب المقدس من إحتكار البابا، وأعطى الحق لجميع المسحيين أن يفسروا ويؤولوا الكتاب المقدس، فمنذ ذلك الحين حكم على موت "الإله" في فكر الغرب، ليكون النص دمية بيد القارىء يلعب بها كيف يشاء، ويبدأ دور القارىء وسلطته في صياغة العلوم والمفاهيم من جديد دون أي اعتبارات لمعاني الأحكام والمقاصد الإلهية،

إن إلغاء المؤلف في النص إلغاء في حد ذاته لنص المؤلف، لإن القارىء يقوم بإنتاج النص من جديد، دون النظر إلى مراد المؤلف، ويصبح تأويل القارىء هو المراد، ويؤيد على ذلك بوريكور فقال: "الدلالة التي ينتجها المؤلف هي المقند للدلال التي قصد إليها المؤلف!!". (بول ريكو، 2001م، صفحة 120)

3. لا نهاية المعنى، وهي عبارة تساوي في حقيقتها رغم تناقض الظاهري " نهاية المعنى" لأن النص بالفعل لم يبقى له معنى، والمعاني التي تلحق به ليست للنص، وإنما معاني ألصقها القارىء بالنص، (أحمد إدريس الطعان، 2007م) وصاحب النص حكم عليه بالموت.

هذه حوكمة الهرمينوطيقية ستحول الثبات إلى حركة، نظرا لأن المعنى وقع استبداله بالفهم، هذا الفهم مرتبط بذات بشرية متحولة ومتغيرة، لذلك أصبح الفهم بحسب مايرده القارىء، (إلياس قويسم، 2000م، صفحة 88)مخضوع لأفق فهمه وقدراته الفكرية والثقافية، لا كما يريده المؤلف، ويختلف معنى النص وتفسيره من القارىء إلى أخرى، تخلق دلالات النص في كل حين وآخر، وفي نهاية المطاف يستحيل استقرار معنى النص ودلالاته، لإن صاحب النص والمعنى المراد الذي ألفه من أجله صدر عليهما قرار الموت.

4. لا قداسة للنص، أي ليس هناك أي نص يتحذر القارىء من تأويله وتغيير مراده، بحجة القداسة، عندما قرر منهج الهرمنيوطيقي ب موت صاحب النص، وأوّل نصه حسب فهمه وقدرته العقلية، فيبعد قراءة البرئية للنص كل البعد، وأكد على ذلك أبو زيد فقال: " القراءة البريئة التي دامت طيلة عصور طويلة للنص ماتت مع الحداثة، ولا يملك بعض بسطاء

النقاد إلا البكاء على قبرها، فقد ولّى واندثر عصر القراءة البرئية للنص إلى غير رجعة" (أبو زيد، 1994م، صفحة 91) وأسوأ من ذلك ما قاله علي حرب في كتابه "نقد النص" فقال بكل صراحة:" لا بد من نزع هالة القداسة عن الوحي بتعرية آليات الأسطرة والتعالي والتقديس التي يمارسها الخطاب القرآني !!" (علي حرب، نقد النص، 1993م، صفحة 203)"وذلك لتحقيق مرجعية العقل وحاكميته.. وإحلال سيادة الإنسان وسيطرته على الطبيعة مكان إمبريالية الذات الإلهية وهيمنتها على الكون!!" (علي حرب، مسيرة التقدم والحداثة بين أنصاف زيتون وأشبار أركون، 1996م)

5. التناص، هو مصطلح نقدي يقصد به وجود تشابه بين نص وآخر أو بين عدة نصوص، (عبد الغني، 2013م، صفحة 1592) ووصف الجرجاني أحد أوجه هذا المصطلح بالانتحال والسرقة والنسخ، (الجرجاني، 2006م، صفحة 364) عبارة عن نتيجة الثقافات والكتابات والحوادث التي مضت في زمن الأولين، وتداخل بعضها مع البعض في مكان واحد، أو بالأحرى في نص واحد، كما قال حمودة: " أن كل نص صدى لنص آخر... مصنوع من كتابات مضاعفة، وهو نتيجة لثقافات متعددة تدخل كلها بعضها مع بعض في حوار، ومحاكاة ساخرة، وتعارض". (حمودة، 2001م، الصفحات 362-372)

النص في منهج الهرمينوطيقا في حد ذاته ليس مستقلاً، بل عباره عن تراكم جملة من النصوص والثقافات التي يحتوي على كم هائل من الإيدلوجيا والمعتقدات الاجتماعية، مليئة بالتوتر والإضطراب النفسية والسلوكية، وبالتالي كل ذلك تشكل وتساهم في تصنيع النص، وقد وضح محمد أركون –هو أحد دعاة لفكرة الهرمينوطيقا– مسألة التناص في القرآن الكريم فقال: " إن القرآن ليس إلا نصاً من جملة النصوص أخرى، تحتوي على نفس مستوى التعقيد والمعاني الفوّارة الغزيرة، كالتوراة والإنجيل والنصوص المؤسسة للبوذية أو الهندوسية". (محمد أركون ، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، 1999م، صفحة 36) وقد ساوا بين كلام الله عزوجل وكلام البشر! ولا فرق عنده بين القرآن الكريم وكتب البوذية، كلاهما يحتوي من الغموضية والتناقض المعرفية، والركاكة في المباني والجمل! وأكدّ على ذلك حسن حنفي

فقال: " لا يوجد فرق بين كلام الله وكلام البشر بعد أن تجسَّد فيهم.... بل إن الإنسان عنده يستطيع أن يقول مثل كلام الله، يقول: " قل أنت: قال الله في كتابه الكريم: يا شباب الحجارة ويا أطفال الحجارة استمروا... ويكون كلامك صحيحًا... أي أنك عبرت عن الواقع بصياغة لو كان الوحي هنا لعبر عن الواقع نفسه ربما بصياغة بلاغية أجمل". (حسن حنفي، الاسلام والحداثة، بحث منشور، صفحة 223)

6. رمزية النص، يتعامل منهج الهرمينوطيقا مع النص على أنه جملة من الرموز والإشارات يحتاج إلى التفكيك مدلولاته ومعانيه، معتمدا على مهارة القارىء وتأويلاته، وللغة التي كتب به النص ليست قادرا على إظهار المعاني المستبطنة في النص، يقول الغذامي: " لن يكون في مقدورنا تحقيق نمو العلاقات داخل النص إلا إذا نحن أخذنا بمبدأ الإشارة الحرة – أي رموزية النص– لإن المدلول المعجمي للعنصر اللغوي يظل قيداً يحاصر نبض النص" (الغدامي، 1987م، صفحة 87)

هذه الدعوة لأجل فتح الأبواب على مصراعيه لتحميل الدلالات المختلفة ولانهائية المغزى والمقصد في النص، لإن عملية التأويل والتفسير للنصوص في هذا المنهج تقوم على استباحة المعاني والدلالات اللانهائية لباطن النص حسب ما يراه أفق القارىء ومشاعره، وذلك بدعوى:" أنه لا يوجد نص لايمكن تأويله من أجل إيجاد الواقع الخاص به" (حسن حنفي، من العقيدة إلى الثورة، 1998م، صفحة 397/1)

هذه هي حقائق التي وصل إليه منهج الهرومنيوطيقا من موت "الإله" وتأليه القارىء، ودحض ونسخ لجميع القيم والأحكام ، وتجريد لمضامن النص وقداسته، ويقام منهج الهرمينوطيقا على إجهاض القواعد والأسس اللغوية والمعرفية، ويكون القارىء هو الحاكم على النص يفسيرها كيف يشاء حسب هواجسه ومشاعره، ولا يستند إلى اللغة ولا إلى مناط النص ودلالته...

المبحث الثاني: الهرمينوطيقيون والقرآن الكريم

المطلب الأول: نظرة الهرمينوطيقيين المعاصرين وآرائهم حول القرآن الكريم وتفسيره

كما هو معلوم أن مسألة التأويل وقراءة فاحصة من تداعيات النصوص ومقاصدها، بل أمرنا الله –عزوجل– بإن نتفكر ونتمعن في كلامه، بغية الوصول إلى المعاني المقصودة والأحكام المرجوة فيه، فقال –عزوجل–: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ محمد:24، أن مسألة تأويل النصوص من أهم المسائل في أوساط الفكر الإسلامي منذ القدم، إلا أن ضوابطه قد حدد لدى علماء هذه الأمة، وأسس بنيانه لئلا يزيغ عنه المسلم، ففي الآونة الأخيرة ظهرت في الثقافة الإسلامية المعاصرة فكرة التجدد والحداثة لقراءة للنصوص وتحليله، وذلك أخذ من مناهج الغرب ومبادئه للتعامل مع النص، ومن بينهم على فكرة "الهرمينوطيقا" ما تقابله "التأويل" في الفكر الإسلامي، لكن مع اختلاف في منهج التعامل وأساليب طرقه، والتأويل في منهج"الهرمينوطيقا" الغربية تتميز بسطوة القارىء على النص، وبوضع آليات الفهم، وكيفية التفكيك النص، بل ومن شروط القارىء الحاذق المتميز أن يطمس وجود المؤلف ويحل محله في النص، ولذلك قال أبو زيد: "ينبغي على المفسر أن يتباعد عن ذاته، وعن افقه التاريخية الراهن، ويحل محل المؤلف ويحاكي تجربته لكي يتمكن من فهم النص بشكل أفضل من مؤلفه نفسه" (أبو زيد نصر خامد، 2005م، صفحة 22) فبتلك الرؤية للنص يختزل أصول القراءة ويؤدي إلى الانزلاق في معاني النصوص وأحكامه، كما يؤدي إلى إفرازات مهلكة في نقض عُرى الإسلام بزعم التَّجديد والاجتهاد وحرية التأويل والتعبير، وإعادة القراءة الجديدة للوحيين بأساليب لا علاقة لها لا من قريب ولا من بعيد بأصول التفسير وقواعده، سنبين في هذا المبحث ما تورط به هؤلاء الهرمينوطيقين من مازلق الفلاسفة الغربيين، وحذو حذوهم لإختزال أحكام الإسلام ومبادئه القيمة، سنسلط الضوء على ما كتبوا على منهج الهرمينوطيقا في تحليل الآيات وقواعد التفسير، ومن أشهر هؤلاء الذين تمسكوا وتبنوا منهج الهرمينوطيقا وأسقطوها في مناهج التفسير للقرآن الكريم، سنعرض أقوال وآراء اثنان منهم:

محمد أركون (1928م– 2010م)

سلك أركون منهج الأوربيين في إحياء قراءة جديدة للنصوص وادعاء ضرورة تحرير النص من الجمود والتقليد السالفين، فمن هذا المنطلق بدأ مشروع أركون لنقد مما جاء من النصوص القرآنية،

والتراث الاسلامي بصورة عامة، وتمسك بتجربة الهرمينوطيقة الغربية لقراءة النص وتحليله، والحداثيون الشرقيون تورطوا بهذه التجربة ووقعوا بمازلق ومصائب الفكرية والعقدية والإجتماعية، وأصبحوا يشككون في ربانية القرآن والوحي والنبوة!! ومما قاله محمد أركون في قضية القرآن الكريم ومسائله:

- يعقتد أركون أن أحكام القرآن وشرائعه لا يصلح أن يكون قانوناً أو منهجاً للمجمتع في كل زمان ومكان، فقال: "**إن القرآن – كما الأناجيل – ليس إلا مجازات عالية تتكلم عن الوضع البشري ، إن هذه المجازات لا يمكن أن تكون قانوناً واضحاً، أما الوهم الكبير فهو اعتقاد الناس بإمكانية تحويل هذه التعابير المجازية إلى قانون شغال ومبادئ محدودة تطبق على كل الحالات وفي كل الظروف**". (محمد أركون ، تاريخية الفكر الاسلامي، صفحة 229)
- بعد نقده وقراءته للنصوص القرآنية، يقر أركون بأن القرآن الكريم فيه الأخطاء والزيادات والتشنج القاسي والهمجية اللغوية، فقال: "**ينبغي القيام بنقد تاريخي لتحديد أنواع الخلط والحذف والإضافة والمغالطات التاريخية التي أحدثتها الروايات القرآنية بالقياس إلى معطيات التاريخ الواقعي المحسوس**". (محمد أركون، الفكر الاسلامي قراءة علمية، 1996م، صفحة 23) :وقال: "**يأتي تارةً على هيئة تكرار زائد، أو تبسيطات، أو تشنجات قاسية، تطلبتها طبيعة الظرف التاريخي**". (محمد أركون، الفكر الاسلامي قراءة علمية، 1996م، صفحة 103)
- يصف أركون منهج القرآن الكريم وأسلوبه بالفوضوية، فقال: "**فإن نص المصحف وطريقة ترتيبه تدهشنا بفوضاها**". (محمد أركون ، الفكر الاسلامي نقد واجتهاد، 1995م، صفحة 86)
- وفي نهاية المطاف يستغرب أركون من اعتقاد المسلمين، بأنهم يعتقدون أن القرآن من الله – عزوجل– ويقول: "**السؤال الذي يطرح نفسه هنا: كيف حصل أن اقتنع ملايين البشر أن الشريعة ذات أصل إلهي؟!!**". (محمد أركون ، تاريخية الفكر الاسلامي، صفحة 296)

حسن حنفي (1935م- 2021م)

- عند حسن حنفي وغيره من الحداثيين المعاصرين أن القرآن الكريم والسنة النبوية لا ينبغي أن يقدسهما أي تقديس، ويقول: "**نشأ التراثُ من مركزٍ واحدٍ وهو القرآن والسُّنّة، ولا يعني هذان المصدران أيّ تقديس لهما أو للتراث بل هو مجرد وصف لواقع**" (حسن حنفي، التراث والتحديد، 2002م، صفحة 154)
- تجاوز حسن حنفي حدته لنقد القرآن الكريم ومحاربته، ولا يعتقد أن الله عزوجل تكفل بحفظ القرآن الكريم، فقال:" **يُغالي البعض وأكثرهم من اللاهوتيين المحافظين ويدعون أن الله قد حفظ كتابه من التغيير والتبديل وأن العناية الإلهية هي الحافظة للنصوص...** ويرى أن آية **(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)**الحجر:9، **هي نظرية لاهوتية صرفة، تهرب من النقد، وتلجأ للسلطة الإلهية**". (حسن حنفي، رسالة إلى اللاهوت والسياسة، الصفحات 21-22)
- يزعم حنفي بأن القرآن الكريم بعد نزوله لا يعتبر من الوحي الرباني، ويتعامل معه كنص وضعه الإنسان، فقال: "**... وذلك لأن الوحي بمجرد نزوله يصبح علمًا إنسانيًّا، ويتحول بمجرد قراءته وفهمه إلى علوم إنسانية**". (حسن حنفي، من العقيدة إلى الثورة، 1998م، صفحة 262/1)
- يرى حنفي رؤية أركون في أن القرآن الكريم محشو بالقصص والأساطير، يقول: " **وثبت! أن ما ظنه الناس قرونًا طويلة وحيًا أنه ليس كذلك بل مجموعة من كتب التاريخ القصصي والأساطير. تحللت النصوص ورجعت كل فقرة إلى مصادرها في بابل أو آسيا الصغرى أو مصر...**" (حسن حنفي، التراث والتحديد، 2002م، صفحة 87)
- ليس هناك أي فارق بين كلام الله عزوجل وكلام البشر عند حنفي فقال: "**لا يوجد فرق بين كلام الله وكلام البشر بعد أن تجسَّد فيهم**" (حسن حنفي، الاسلام والحداثة، بحث منشور)، وقال أيضاً: " **كلام البشر هي الشرارة والوحي هو النار... وقد يأتي كلام البشر تمامًا مثل كلام الله إبداعًا فنيًا أصيلًا من الإنسان وكأن الوحي قد تحول فيه إلى إبداع خالص**" (حسن

حنفي، الاسلام والحداثة، بحث منشور) بل يرى أن الإنسان يستطيع أن يعبر أفضل وأقوى مما جاء في القرآن الكريم، فقال بدون تحرج: " **قل أنت: قال الله في كتابه الكريم: يا شباب الحجارة ويا أطفال الحجارة استمروا... ويكون كلامك صحيحًا... أي أنك عبرت عن الواقع بصياغة لو كان الوحي هنا لعبر عن الواقع نفسه ربما بصياغة بلاغية أجمل**" (حسن حنفي، الاسلام والحداثة، بحث منشور)

تلك نموذج من نماذج القليلة من أقوال وآراء الهرمينوطيقين المعاصرين، وكلامهم جلي وواضح في طعن القرآن والوحي والشريعة، ويحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم، ويصفون القرآن كما وصفه المشركون من قبلهم، ويرون أن القرآن الكريم جملة من الأساطير والأخبار بإمكان البشر أن يعبر مثل القرآن أو أفضل منه، فهؤلاء نقضوا عرى الإسلام من داخله، وأردوا تبخير شريعة الإسلام وأحكامه،

وأنسنة النصوص وعصرنة معانيها، ويوثرون الشبهات والزعزعة بين المسلمين، وأن مهمة الهرمينوطيقا كما يقول حسن حنفي يتمركز بتهميش ماجاء به الوحي من الشرائع والأحكام وتعطيله، ويحل محله الدين الإنساني الطبيعي الذي نابع من الفهم الانسان وقراءته للحياة والمجتمع، فقال بكل الصراحة ووقاحة: "**إن مهمتنا هي أن نتنقل بحضارتنا من الطور الإلهي القديم إلى طور إنساني جديد، فبدلا من أن تكون حضارتنا متمركزة على الله.. تكون متمركزة على الإنسان.. وتحويل قطبها من علم الله إلى علم الإنسان ... حتى تصل الإنسانية إلى طور الكمال، وينشأ المجتمع العقلي المستنير!!**" (حسن حنفي، دراسات الاسلامية، 1981م، صفحة 128)

من خلال ماعرضناه سابقا من مفاهيم أصحاب هذا التلقيد الأعمى للهرمينوطيقا الغربية، ظهر واكتشف أن معركتهم الحقيقية وهمهم الدفينة هي ضد ذات الله عزوجل وكلامه، والمقدسات والعقائد والقيم الإسلامية الراقية.

المطلب الثاني: استحالة اسقاط منهج الهرمنيوطيقا في تفسير آيات القرآن الكريم

منهج الهرمينوطيقا إن كانت يساعد المرء في آلية التفكر النصوص ويرشده إلى إستعادة منهج الإستنباط، ويعرفه على صيغ التعبير والألفاظ والدلالات للنصوص سواء كان من ناحية الدينية أو الاجتماعية أو اللغوية فلا مانع بذلك شرعا وعقلا، بل يحثنا الشرع على ذلك، وأمرنا الله عزوجل بالتدبر والتمعن في القرآن الكريم فقال: [أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ] محمد: 24، لكن شريطة أن لا يتعارض مماجاء به الشرع، ولا يخوض في الأحكام الثابتة في الدين... والناظر لمنهج الهرمينوطيقا ومبادئها ليرى أنها يخالف الأصول والفروع في الشرع، بل يخالف اللغة والأسس العلمية، ومن أهم مما ادعى إليه هو نزع القداسة من النص وأنسنته، وتأليه العقل والفهم، ويعطي القارىء حرية مطلقة في كيفية تحليله و تأويله للنص، ويصبح معنى القارىء هو المراد في النص وإن خالف معنى صاحب النص، وأراد أن يكون العقل الإنسان هو الحاكم على النص، فقال أحد منهم: ".. وذلك لتحقيق مرجعية العقل وحاكميته.. وإحلال سيادة الإنسان وسيطرته على الطبيعة مكان إمبرالية الذات الإلهية وهيمنتها على الكون..!! (علي حرب، مسيرة التقدم والحداثة بين أنصاف زيتون وأشبار أركون، 1996م)

تأويل النصوص واستخراج المعاني لا يتوقف عند هؤلاء، فمن الطبيعي عندهم أن يفهم كل واحد منهم بتأويل المعنى المختلف عن الآخر؛ والنص الواحد، وفهم السلف وعلماء الأجلاء من قبل لا يعتبرونه شيئا، بل بزعمهم أنهم مافهموا حق الفهم للنص، أو أنهم فهموا حسب زمانهم واحوالهم..

استحالة منهج الهرمينوطيقا في تفسير القرآن الكريم يتوقف على مايأتي:

أولاً: حرية الرأي والفهم المطلق للنص، يقوم منهج الهرمينوطيقيا على تحرير العقل والفهم من جميع القيود الشرعية واللغوية والعلمية، بحيث يسمح للقاريء أن يفسر النص حسب ما يفهمه، بل يلزمه بأن يأتي بمعان جديد وإن كان يخالف مراد صاحب النص، على سبيل المثال، قال محمد شحرور في تفسير قوله تعالى: [وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ] النور:31، أن الحجاب الشرعي للمرأة المسلمة ما تغطي به الإبطين والثدين والفرج فقط! الكتاب والقرآن محمد شحرور، ص 604، وكذلك يفسر قول الله تعالى: [وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا] المائدة: 38، أن

المراد من القطع هو المنع، ومعنى الآية: أي كفوا أيديهما عن السرقة، باسجن وما شابه ذلك. نحو أصول جديدة ص99، كل هذه الشطحات نتيجة التعسف والتكلف لقراءة معنى آخر للنص...

ثانياً: رفض تعظيم النص وقداسته، أسس فكرة هرمينوطيقا على ذلك، كما ذكرنا سابقا، بأن لورت ماثر، قام برفض سلطة البابا واحتكاره على النص، وأطلق سراح النص كالطائر يحلق في جو السماء ويحق لأي شخص يصطاده، حينئذ زرعت فكرة عدم قداسة النص ، ولذلك قال علي حرب " لا بد من نزع هالة القداسة عن الوحي بتعرية آليات الأسطرة والتعالي والتقديس التي يمارسها الخطاب القرآني !!" (علي حرب، نقد النص، 1993م، صفحة 203) "وذلك لتحقيق مرجعية العقل وحاكميته.. وإحلال سيادة الإنسان وسيطرته على الطبيعة مكان إمبريالية الذات الإلهية وهيمنتها على الكون!!" (علي حرب، مسيرة التقدم والحداثة بين أنصاف زيتون وأشبار أركون، 1996م)

ثالثاً: لا يمكن أن تكون حداثياً أو تنويرياً أو هرمينوطيقياً إن لم تحكم بأنسنة القرآن الكريم، وتاريخانيته، لأن في منهج الهرمينوطيقا يحل القارىء محل صاحب النص، أي يفسر كيف يشاء، ولا يبالي بأسباب النزول واللغة وأصول التفسير وأقوال الصحابة والتابعين، ولذلك ينددون في كتاباتهم مات المؤلف، أي مات الله سبحانه تعالى عما يقولون علوا كبيرا، وكذلك ينظرون إلى القرآن الكريم كنص تاريخي واسطوري حدث في زمن محدد، والدارس لمنهج الهرمينوطيقي وروادهم ليرى أنهم يشكون في الرسالة والنبوة والوحي. والحداثيون المعاصرون اليوم أيضاً فيهم من يشكك في ربانية القرآن الكريم، ونبوة محمد –صلى الله وسلم– أو ينفي وجود أنظمة سياسية واقتصادية واجتماعية في القرآن الكريم.

منهج الهرمينوطيقا من المناهج دسيسة الغربية في أوساط المجتمع المسلم، لتدمير روح الشريعة وتحريفه، كما فعلوا بالتوراة والإنجيل، وقد فشلت محاولتهم ومكائدهم لتحريف القرآن الكريم، واردوا أن يدخلوا في تغيير معاني الكلمات وتأويل ألفاظه، تحت مظلة الحداثة وتغير الزمان، ويدعوا إلى استثمار الخطاب الديني، لا للتفكر والاستنباط والتصحيح، بل لتحريف المراد والأهداف، ينقلب العقيدة إلى الثورة، والإله إلى الإنسان...

الخاتمة

من خلال بحثنا في هذا الموضوع توصلنا إلى أهم النتائج الآتية:

1. نشأ فكرة الهرمينوطيقا إزاء احتكار البابا لتفسير الكتاب المقدس.
2. لا يهتم منهج الهرمينوطيقا ببيان ظاهر النص، وإنما يقوم بإعمال العقل وتشغيل آلية الإمعان والتفكر في مضامن النص.
3. لا يستند المنهج الهرمينوطيقي في تفسير النص إلى القواعد العلمية أو اللغوية، بل عقل القارئ وتفكيره هو الذي يحكم على النص، لإن مؤلف النص يموت ويحل القارىء محله.
4. تعد منهج الهرمينوطيقا في تفسير القرآن الكريم من قبيل تفسير القرآن الكريم بالرأي المذموم، وتدخل ضمن تفاسير الفلاسفة.
5. منهج الهرمينوطيقا فكرة غربية علمانية، يعمل لتحطيم المقدسات الدينية وتغيير الأحكام والأصول.
6. يشك منهج الهرمينوطيقا بمصداقية الوحي والرسالة والنبوة بل ينكره في بعض الأحيان.
7. جاءت منهج الهرمينوطيقا لتحطيم كل الضوابط والأسس العلمية واللغوية، بغية التلاعب بمعاني النص ودلالاته، يفسرها حسب هواجس القارىء وأهواءه.
8. يقوم منهج الهرمينوطيقا بالمسح والشطب والطمس مما وضعه علماء هذه الأمة من القواعد والأصول.
9. لا يمكن استعمال منهج الهرمينوطيقا في تفسير القرآن الكريم، لأنها تصدم مع ضوابط التفسيره وقواعده.
10. يساوي كلام البشر مع كلام الله سبحانه وتعالى عند منهج الهرمينوطيقا، كلاهما قابل للرد والقبول، وهذا زندقة في الدين، لا يقوله المسلم السوي.
11. وإن تتفق معنى الهرمينوطيقا الغربي مع التأويل الإسلامي من حيث إعمال العقل، والتفكر في مضامن النصوص، لكن تختلفا من حيث القواعد والشروط لتفسير النصوص.

المراجع

أبو زيد نصر خامد (2005م) *إشكاليات القراءة وأليات التأويل*، المغرب، دار البيضاء.

أبوبكر عبدالقادر الجرجاني (2006م) *دلائل الإعجاز*، بيروت، المكتبة العصرية– صدا.

أحمد إدريس الطعان. (2007م). *العلمانيون والقران الكريم*. الرياض: دار ابن حزم.

إلياس قويسم (2000م) *إشكالية قراءة النص القرآني في فكر العربي المعاصر، نصر حامد أبو زيد نموذجا*. رسالة ماجستر.

بول ريكو (2001م) *من النص إلى الفعل* القاهرة، ترجمة: محمد برادة– حسان بورقيية.

جاسم حميد، هبة محمد (2015م) *الهرمينوطيقا والتشكيل المعرفي*، جامعة بابل، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم والتربوي الإنساني، العدد22.

حسن حنفي (1981م) *دراسات الاسلامية*، بيروت.

حسن حنفي (1998م) *من العقيدة إلى الثورة*، القاهرة.

حسن حنفي (2002م) *التراث والتحديد*، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات.

حسن حنفي (2008م) *معنى الخطاب الديني*، مجلة /جريدة الجريدة، عدد273.

حسن حنفي، (بلا تاريخ) *الاسلام والحداثة*.

حسن حنفي (بلا تاريخ) *رسالة إلى اللاهوت والسياسة*.

دايفد جاسبر (2007م) *مقدمة في الهرمينوطيقا*، الجزائر – دار العلوم العربية.

ريتشارد بالمر (ترجمة: محمد سعيد) *علم هرمنونتك*.

صفدر إلهي راد (سلسلة مصطلحات معاصرة رقم 23) *الهرمينوطيقا*، ترجمة: حسنين الجمال، المركز الاسترجية.

عبد الغني (2013م) *معجم الغني الزاهر*، بيروت– دار الكتب العلمية.

عبدالعزيز عبدالسلام حمودة (2001م) *المرايا المحدبة من البينونة إلى التفكيك*، الكويت.

عبدالله محمود الغدامي (1987م) *تشريح النص*، بيروت– دار الطليعة.

علي حرب (1993م) *نقد النص*، بيروت.

علي حرب (1996م) *مسيرة التقدم والحداثة بين أنصاف زيتون وأشبار أركون*، مجلة الحياة – لندن .

محمد أركون (1995م) *الفكر الاسلامي نقد واجتهاد*، بيروت– دار الساقي، ترجمة: هاشم صالح.

محمد أركون (1999م) *الفكر الأصولي واستحالة التأصيل*، دار الساقي.

محمد أركون (بلا تاريخ) *تاريخية الفكر الاسلامي*.

محمد أركون (1996م) *الفكر الاسلامي قراءة علمية* بيروت – دارالبيضاء، ط2، ترجمة: هاشم صالح.

محمد أركون (1996م) *الفكر الاسلامي قراءة علمية*، بيروت – دار البيضاء، ترجمة: هاشم صالح.

منى طلبة(2004م) *الهرمينوطيقا المصطلح والتاريخ*، مجلة أوراق فلسفية، العدد 10.

نصر حامد أبو زيد (1994م) *نقد الخطاب الديني*، القاهرة– دار سيناء.